الديانة البربرية القديمة

كانت الديانة البربرية القديمة ديانة وثنية، غلب عليها الطابع التبسيطي في مفهومها وطقوسها، فهي لا تخرج عن التأثر الفكري و البساطة التي يمتاز بها البدوي عموما و البربري على وجه الخصوص، و لهذا اعتبرها "باسيه" (BASSET) ديانة طقسية كثيرة الاقتباس والديانات الأخرى. و مع هذا كان لها خصوصيات ميزتها عن غيرها بطابعها المحلي.

أ- الآلهة البربرية:

كان للبربر كغيرهم آلهة كبرى إليها تتجه أفئدة المتعبدين، فهي التي تدير العالم وتدبر أحوال عبادها، وقوتها منتشرة في كل مكان، بكل جبل، وبكل كهف... وكان كبيرها " بعل حمون"، فهو الوحيد الذي أخذ صفة الآلهة الكبير ذي الإلوهية التامة الخالية من الصفات الرمزية، ومن خصوصياته أنه لم يكن بربريا بالكلية، إذ كان إلها مركبا من كبش مقدس يمثل قوة الماشية البربرية، ومن إله الشمس الكبير أمون-رع، وربما من شخصية ثالثة إلهية هو الإله المستشار (ORACULAIRE) للواحة الكبيرة، وكان يمثل في جسد إنسان ورأس كبش، وتطور في كل النواحي المغربية خاصة النوميدية، وأعطيت له صفات مخصوصة منها إله الطبيعة، واستمر ذكره إلى العهد البيزنطي.

ورغم الاختلاف حول بعل-حمون فالمرجع أنه من أصول فينيقية. لكن هل كان إله الشمس قبل ذلك؟ المرجع أنه كان كذلك في قرطاجة. هذا وقد ذكر هيرودوت ق5ق.م أن البربر الليبيون كانوا يعبدون الشمس والقمر يقدمون لهما القرابين، وقد أكد هذا ابن خلدون بعده. كما عبدوا الأرض لكنهم فيما يبدو لم يصلوا بها إلى مصاف الآلهة الكبرى كالشمس والقمر.

واختلف في الآلهة القرطاجية " تانيت"، أكانت ذات أصول بربرية، هذا الذي رآه " م.ديسو" (DUSSAUD) وخالفه باسيه وقزال مرجحان أنها نفسها الإلهة عشترت الفينيقية.

وذهب باسيه أيضا إلى أن بعض الآلهة القرطاجية قد أصبحت آلهة بربرية مع تغير أسمائها، وتواصلت كمعبودات إلى نهاية العهد الروماني، فمثلا بعل حمون وتانيت قد تحولا إلى الإلهين

ساتورنوس الإفريق (SATURNUS AFRICAIN) و جونو كايلستيس (JUNO CAELESTIS) بالتأثير اللاتيني، على أن الاحتلال الروماني قد ساعد على بقاء هذه المعبودات بل ودعمها.

كما كان للبربر عددا من الآلهة الأخرى ذات الصفات الإلهية الخاصة، إلا أننا لا نجد لها ذكرا في المصادر الإغريقية واللاتينية بتسميتها الحقيقية بل بتسميات مقابلها في الديانات الأخرى لكُتابها، فمنها: أثينا و بوزيدو وتريتون و كرنوس و هرقليس و أبولون... كما ذكر لنا " كوريبوس" (CORIPPUS) المؤرخ البيزنطي عددا من الآلهة البربرية التي ذكرها بأسمائها الحقيقية فيما يبدو منها: سينيفير (SINIFERE) ومستمان (MASTAMANE) وغرزيل بن أمون (GURZIL)، ويبدو أنه لم يعرف عندهم إلهة مؤنثة غير تانيت وديان (DIANE) التي ذكرت في نقشيه سطايفية.

واختص الإله غرزيل بأن مثل في شكل ثور، وكانت القبائل البربرية في القرن 4 م ترسل على عدوها قبل الالتحام في الحرب ثورا يمثله ومعه بقرة.

وقد قدست وعبدت البربر قديما القوى الروحانية المحلية وبكثرة؛ فلكل منطقة وموضع القوى الروحانية الخاصة به، التي تستمنح المنافع وتستدفع بها المضار، بتقديم القرابين ، وكانت مساكنها غالبا الكهوف. وقد وجد العديد من الكتابات في إحدى كهوف ڤالمة موجهة لقوة تدعى" باكاكس" (BACAX) ، وأخرى في قسنطينة موجهة لـ " إفرو" (IFRU).

لقد دفعت عموم هذه التصورات حول الآلهة إلى الانتساب إليها، لجلب شيء من سلطانها، ولهذا اختص بعض ملوك البربر بهذا النسب الإلهي، منهم يوبا الأول وابنه، المنتسبين للإله البطل هرقليس.

- **تصورات الآلهة**:

لقد أخذت هذه الآلهة الكبرى في الغالب تجسيدا محسوسا، في مرحلة انتقلت فيها من الصفة الروحية غير المحسوسة إلى الصفة المجسدة المنحوتة، ومنها الصفة المجسدة المشهورة للإله بعل حمون (كبش)، وقد وجد في الصحراء نصبا حجريا مستطيلا ينتهي برأس كبش، كما قد ذكر لعدد من الآلهة الليبية تماثيل حجرية وحتى حديدية كتمثال الإله الليبي غرزيل. والغالب فيها تجسيدها في صور بشرية ممزوجة برؤوس حيوانية على المنوال الفرعوني.

وكانت عبادة (تقديس) الحيوانات (ZOOLATRIE) إحدى أوجه العبادات عند البربر، وقد كانت لهم مع ذلك أيضا أصول ديانة طوطمية (TOTEMISME) تؤمن بوجود صلة قرابة بين الإنسان ونوع من الحيوان والنبات يعيشون في نفس المكان.

ب- الطقوس والعبادة:

كانت الطقوس الدينية ذات طابع سحري كهنوتيP إذ كانت ديانة البربر ديانة طقوسية أكثر من شيء أخر، ممزوجة بطابع سحريP إما فردي يقصد منذ النفع الخاص أو جماعي يقصد منه نفع الجماعة. وأكثر هذه الطقوس متعلقة بالماشية ورعيها واستعمال منتجاتها، وأكثر منها ما تعلق بالزراعة والحبوب، يحتفل بها في الحرث والزرع والجني. بل وكان لكل حدث اجتماعي طقوسه، بل وللحدث الطبيعي أيضا. وقد ارتفع بعض هذه الطقوس حتى صارت أعيادا يحتفل بها كل سنة، ومنها ما ذكره "سالستيوس" مما كان يحتفل به زمن يوغرطان في البلاد المغربية، وكان موعده نهاية الشتاء.

ويؤكد باسيه أن بعض هذه الطقوس كان اقتباسا من قرطاجة، ومنها طقوس الرمانة الزراعية، حيث كان يكسرها البربري على عربته الحراثية لتخرج الأرض زرعا بعدد حبات رمان، ومعلوم أن الرمان كان علما قرطاجيا للخصوبة قديم.

واقترن كثيرا بهذه الطقوس تقديم القرابين على مختلف الأشكال، وخاصة منها الأضحيات المقدسة، وقد ورد في عدد من المصادر ذكرا لتقديم البربر القرابين البشرية، فذكر " كوريبوس" أنهم كانوا يحرقون الضحايا البشرية لإلههم " مستمان" الليبي، وزعم باسيه أن هذا اقتباس قرطاجي.

ج- المعابد ورجال الدين:

من خصوصيات الديانة البربرية تقديسهم الكبير لصلحائهم وأبطالهم وقديسهم (AUTROPOLATRIE)، حتى حملوها قوة روحية نافعة وضارة، واختصت عندهم في القديم بالملوك وكبراء قبائلهم، Tكان أشهرهم في هذا يوبا الأول. ودفعهم هذا التقديس إلى بناء أضرحة ضخمة لهؤلاء القديسين كماسينسان وربما مسيبسا وغيرهما، لكن ليس لنا من دليل يشير على أن أحد هؤلاء كان في حياته معدودا من الأبطال ذوي الصفات الإلهية.

وفي مثل هذا النوع كان للبربر متنبئون بالحوادث، يستنجد بهم العامة في أمورهم، ومن الغريب أنه كان يمنع على الرجال في البلاد المورية القيام بهذا الدور، وإنما اختصت به لنساء.

أما المواضع الدينية فلم تكثر عندهم، اللهم إلا تلك المواضع التي كانت تقدم فيها القرابين المختلفة للآلهة والمعبودات، وكانت عبارة عن مواضع دائرية ومربعة مكشوفة السماء، تطورت بالتأثير القرطاجي والإغريقي –كما يزعم قزال- إلى معابد إلهية أكبر حجما، خاصة في عصر الملوك النوميديين. وقد حوت هذه المعابد كاهنا يقوم بطقوس الديانة، كان في الغالب أميرا من أحدى القبائل البربرية كما في حال أمير قبائل لغواطن كاهن الإله غرزيل.

ومن الملاحظ أن دور الكاهن البربري كان ضعيفا في جانب التمثيل الاجتماعي، إذ لا نجد له ذكرا إلا في النادر جدا، في الأحوال السياسية والقبلية في الممالك البربرية. ومن الملاحظ ايضا عدم ذكر لطقوس البغاء المقدس في هذه المعابد، إلا في موضع واحد في مدينة " سيكا" (SICCA) حيث ذكر ما يشبه هذا، ولعله اقتباس قرطاجي إن صح.

وصفوة القول أن الديانة البربرية القديمة كانت طقوسية الروح، إذ كما يقول باسيه: لم تكن البلاد أرضا خصبة لنشوء الآلهة. وقد ساعد التأثير الفينيقي في الانتقال من العبادة السحرية الطقوسية إلى العبادة التألهية (الوثنية)؛ حيث أعطت المعبودات غير المحسوسة طابعا وثنيا محسوسا. ورغم كل هذا يؤكد قزال وباسيه محدودية هذا التأثير القرطاجي! كما يؤكدان على أن البربر قد أظهروا ضعفا في التفكير الديني؛ لتعلقهم بطقوسهم أكثر من تعلقهم بأفكارهم الدينية، في تلميح منهما للضعف الفكري العام الذي تميز به البربري فيما زعما، وفي هذا ظلم وإجحاف في حق هذا الشعب، إذ لا يخفى أن الطبيعة الاجتماعية هي التي تبلور الفكر الديني، ولا يعقل أن ينتظر من مجتمع بدوي حركة فكرية ودينية ذات شأن.

اهـ.

❖ **المصادر والمراجع:**

- ❖ اصطيفان اكّصيل، تاريخ شمال إفريقيا القديم، ترجمة محمد التازي سعود، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 2007.
- ❖ غابرييل كامبس، البربر ذاكرة وهوية، تـ. عبد الرحيم حزل، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م.
- ❖ محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1992م.

- سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، تـ. السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، 1986م.
- محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، دار الهدى، عين مليلة-الجزائر، 2008م.
- محمد البشير الشنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب القديم أثناء الاحتلال الروماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- محفوظ قداش، الجزائر في العصور القديمة، تـ. صالح عباد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ت.